رسالة الصحفى

نحن مصريون ...

فمن واجبنا أن نعرف مصر

كيف اقرءت على دراساتى لتاريخنا المصرى القديم ؟

للاستاذ الكبير عبد القادر حمزه

تناولت الدراسة فى مراحل التعليم كله ، فكنت تلميذاً فى المدرسة الابتدائية ، فتلميذاً فى المدرسة الثانوية ، فتلميذاً فى مدرسة الحقوق ؛ ولا أنكر عليك أنى كنت فى هذه المراحل — على تفاوت خطواتها — كثير الحفاوة بهذه الدروس التى كانت تزجى إلينا عن تاريخنا المصرى القديم ، وكانت هذه الدروس تلابس فى نفسى مايلابسه الجوانب المحببة إلى النفس من عواطف ، فلم تذهب آثارها فى زحمة العلوم الأخرى التى كانت تدعونى إلى مسايرتها فى صحبة طويلة ، وتأمل كثير ، وإنما بقيت حيث هى من دخائلى وطوايا .

وحين تخرجت فى مدرسة الحقوق ، وتهيأت لى أسباب الصلة بالمجتمع على وشيجة أوفر قوة ، وفى موطن أكثر رحابة ، أتيح لى أن أمضى إلى « الأقصر » لأقضى فيها أياما ، أعادت إلى ذكريات التاريخ القديم ، وكان كل شىء من حولى يؤكد لى أن دراساتى المدرسية لا جدوى فيها ولا غناء ، وأن هذا التاريخ الذى بلونا فصوله فى كتبنا المدرسية لاقدرة له على أن يلزم النفس مكانة الثقة والهدوء ، ذلك أنى أشهد آثاراً ، لم تعها صفحات الكتب وألمس من ورائها شعوراً لم تلمسه الأقلام التى دبجت لنا هذه الصفحات .

وأصدقك القول أنى عجبت لهذا التنافر الحائل ، بين مشاهد التاريخ التى تستوعبها العين فى الأقصر ، وبين مشاهد التاريخ التى وعيتها من صفحات الكتب المدرسية جميعاً ، ولا خلاف على أن هذا التنافر قد مهد لى سبيل الدأب الكادح ، حتى أصيب من حقائقنا القديمة

مالم تسع إليه وزارة المعارف من عهد بعيد حين اطمأنت إلى إخراج تاريخنا على ماألفنا من ضيق ، وعرفنا من قصد ، بينما هي لم يقنعها أن توجه الأذهان فى دراسة الثورة الفرنسية وجهة توافق الأسلوب الضيق الذى عمدت إليه فيما يتعلق بتاريخنا المصرى ، وإنما كان الشأن لديها فى دراسة هـذه الثورة الفرنسية محوطا بألوان من الأسباب والأعتاب ، وما على المصرى من جناح أن يستوعب ثورة الفرنسيين فى أحب مصادرها وأوسع ساحاتها ، فى هـذه الثورة مايهديه إلى معرفة الجوانب الرائعة من جهاد سعى به مبتكروه إلى تركيز المبادىء الانسانية تركيزاً فيه خير للفرد ، وفيه للجماعة نفع كثير . .

على أن هذه الدراسة المستفيضة من جانب التلميذ المصرى لثورة فرنسا — على مافيها من خير — لايمكن لها أن تكون عذراً مقبولا عن هذا الضيق الذى يدفع التاريخ المصرى إلى ركن ضيق ، وإلى فج عميق ، فا التاريخ المصرى القديم إلا مرحلة من مراحل المجد القومي الخالد ، ومن حق هذه المرحلة أن يدركها المصريون إدراكا شاملا حتى يتأثرها منهم من يهتف لبلاده بالحياة سعيدة موفقة سديدة الخطوات . . .

* * *

وبقيت هذه الموازنات ، وإلى جانبها خطرات أخرى . تلاحقنى بعد إذ تركت الأقصر وتخفى معى فى جانب أختلف إليه ، وفى كل موطن أستقر فيه ، وحببت إلى التعرف الى آثارنا فى أشتات مواطنها فأكثرت من غشيان هذه المواطن ، أطيل فى مشاهدها التأمل ، وأستوحي ذلك الصمت البادى عليها توقيعاً لى فيما عقدت العزم عليه .

ولعلك أدركت ، على أى جديد عقدت العزم وتشدت التوفيق ، فا يطوف بى إلا خاطر واحد يحفزنى على أن أدرس تاريخنا المصرى القديم دراسة استقصاء واستقراء وبحث وتحقيق حتى أعلم ، أى جوانبه كان خيراً على العالم ، وأى نواحيه كانت على الدنيا سعادة ونفعاً . . .

* * *

كانت مرحلة عسيرة مضنية شاقة ، مضيت فيها فى أول الأمر وأنا على عهدى من الغبطة فلما توسطتها رأيت الغموض المحزن يكتنفها من نواحيها . ولما خرجت منها رأيتنى لم أظفر بشىء له خطره ولكنى ظفرت بقوى جديدة هيأت أن أتابع السعى حتى انتهي إلى غاية المأمول . . . ذلك أنى التمست تاريخنا القديم فى مصادر مصرية . فلم أعثر — بعد طول البحث — إلا على كتابين اثنين : أحدهما للأثرى المرحوم أحمد نجيب والآخر للأثرى المرحوم أحمد كمال ولقد صحبتهما ما وسعنى جهد الصحبة . ولكنهما لم يقنعانى بالأخذ عنهما كمصادر يحق لها أن تهدى الباحث . لانهما لا يكفيان فى هذا الباب فتركتهما . وأنا شديد الأسف على أن تاريخنا الذي أيقظ الدنيا بأكملها . لم يلهم واحداً من علمائنا فكرة السعي إلى تحقيقه

تحقيقاً يرضى الباحث ويهديه . . .

خرجت إذن من هذه المرحلة على ما أسلفت لديك . وتابعت السعي وراء المصريات السحيقة فى كتب فرنسية . فاذا بى حيال عشرات وعشرات من هذه الكتب ، كتب جانب منها بأقلام فرنسية خالصة لانها مؤلفة بأقلام جماعة من علماء الفرنسيين ، وكتب الجانب الآخر بأقلام فرنسية أيضا ولكنه منقول عن لغات عديدة كالايطالية والالمانية والانجليزية . . . ولقد رأيتنى أنصرف إلى هذه الكتب ورأيت فيها بحوثا من حقها أن تستهوى المصرى . قدر ما ترفع الستر عن وجوه قديمة شهدتها شواطىء النيل . ولقد أيقظت هذه الكتب فى نفسى عاطفة من العجب والدهشة . ذلك أنها أخذت تحدثنى عن حياتنا الدابرة حديث تلوت فيه حقائق لو أنها شهدت الضوء فى أجوائنا من زمن بعيد لاستطاع هذا الجيل أن يخرج إلى العالم وملء رأسه نزعات أخرى ، هى أثر من ذلك الوحى الذى تحدثنا به تلك الحقائق التى اهتديت إليها من حديث هذه الكتب إلى — نعم .. فقد عرفت أننا كنا أسبق الناس إلى ابتكار الآراء التى خلعها على أنفسهم علماء يذكرهم العالم اليوم فى إكبار وإجلال وتوقير — نعم .. وقد عجبت موفور العجب وجزيله ، لأن هذا التراث العلمى الذى ابتكره أجدادنا بقى منسياً فى بلادنا حتى اليوم . ينبهه العلماء ويسطرون عليه — نعم .. وقد عجبت عجباً كثيراً لهذا الضيق الشامل يشمل تاريخنا المتعدد الجوانب . فلا يزيده المشتولون عن بثه وإذاعته إلا انكماشاً وضيقاً . حين اطمأنوا إلى إخضاعه لصفحات قليلة فى كتب لاتبعث قراءتها فى النفس عاطفة من عواطف التأثير . . . عجبت لهذا كله لأنى — وهذا مايوافقنى كل مصرى فيه — أعلم أن دراسة التاريخ لا تعدو أن تكون بثا لروح العزة القومية فى نفوس الناشئين ، وحسبها ذلك الطابع تدفع به الناشىء ليصاحبه شابا ورجلا

* * *

هنا انتهت النتائج التى أصبتها من دراساتى فأزجيتها إلى الشعب راضيا مغتبطاً ، وها أنت ترى أنى ألتمس السعى إلى توسيع نطاقها . توسيعاً من شأنه أن يخلق لمصر جيلا يعرف تاريخها معرفة لا ضيق فيها ولا غموض .

وما أعتقد إلا أن وزارة المعارف حقيقة أن يشغلها هذا السعى ، لأنه بعض ما تنهض به من واجب الحرص على تراثنا القديم أن يعيش أبداً فى موطن غريب

وقد يهون عليها البلوغ إلى الغاية من توفية تاريخنا المصرى حقه أن تعمل :

أولا : على تدريس التاريخ المصرى القديم فى سياق أوسع باحة ، وأرحب ساحة ، وأكثر أبوابا ، وأضفى أثوابا .

ثانياً : أن تتعهد بالترجمة جانباً من الكتب الأجنبية التى قصرها مؤلفوها على البحث

فى التاريخ المصرى القديم ، فأن نقل عليها ـ من هذا الجانب ـ عبء العمل ، فقد لا يكون أمراً شاقاً ولا شيئاً عسيراً عليها أن تعهد إلى جماعة من القادرين على التأليف فى هذا الموضوع أن ينهضوا إلى إخراج كتاب ـ أو كتب فى اللغة العربية ـ ليدرس الطلبة فيها تاريخ بلادهم فى ضوء جديد ،

وما أعتقد إلا أن وزارة المعارف ، حين تنهض بهذا العمل المعهود المذكور ، ستدفع عن الناشئين شر الجهل بتاريخ من حقهم أن يعلموا عنه كل شىء ، لأنه تاريخ مصر ، ومن واجبنا أن نعرف تاريخ مصر .

عبد القادر حمزه

كلمات مأثورة

١

- لم أر كالشرفيين رجالا تكمن القوة فى أفرادهم ويظهر الضعف فى مجموعهم
(مفتاح ابراهيم)
- أحب التوحيد فى ثلاثة : الله ، المبدأ ، المرأة . وأحب الحرية فى ثلاثة: حرية المرأة فى ظل زوجها ، وحرية الرجل تحت راية الوطن ، وحرية الرجل فى ظل الله . (اسماعيل باشا صبرى)
- لا حياة لهيئة الاجتماعية إذا لم يكن فيها نساء رافيات لأن المرأة روح الاجتماع (نابليون)
- المرأة الجميلة تسر العين ، والمرأة الفاضلة تسر القلب ، الأولى جوهرة ، والثانية كنز (نابليون)
- ينبغى أن يكون الحب منبتا للسعادة لا مصدرا للشقاء (نابليون)
- إنى وإن أكن أصبحت ملكا لم أنس أنى وطنى ، ما جعلت يوما الحياة عندى اهتماما كبيرا ، ما كنت لأحاول ولم أحاول أن أزحزح قدمى فرارا من الموت . ليست قيمتى بالعرش ولا بالملك ، إنما قيمتى فى نفس كلمة «مستحيل» فى اللغة الافرنسية . إنى لا أعرف هذه الكلمة . إن كلمة مستحيل لا توجد إلا فى قواميس الجهلاء (نابليون)
- يابنى أكثروا من النظر فى الكتب وازدادوا فى كل يوم ، فأن ثلاثة لا يستوطنون فى غربة : الفقيه العالم ـ والبطل الشجاع ـ والحلو اللسان (ملك الهند وكان له أربعون ولدا)
- كلام العاقل كله أمثال ، وكلام الجاهل كله ملال (سابور بن أردشير)